تـمّ تحميـل هـذا الملـفّ مـن مكتبـة الأديـب الرّاحـل رمضـان لاونـد | جميـع الحقـوق محفوظـة © www.RamadanLawand.com

- القادة السوفيات يتخوفون من أن يفقد الاتحاد السوفياتي دوره كقوة عظمى .
- البيريسترويكا والغلاسنوست مبدآن للحفاظ على رسالة السوفيات التاريخية .
- راحة المواطن ليست مما وضعت له السياسة الجديدة بل هو الخوف من الانهيار الإقتصادي.
- القادة يوافقون على التضحية ببعض امتيازاتهم أما دورهم القيادي فلا يتنازلون عنه .

الحلقة الثانيـة

في أوساط المراقبين للأوضاع الدولية ولا سيما في الإتحاد السوفياتي والعلاقات الجديدة المنعقدة بينه وبين الغرب تتردد ، كما قلنا غير مرة ، تساؤلات حول موقف الغرب الحقيقي مما يجري في الإتحاد السوفياتي . هل أن الغرب مقتنع تماما عما تؤكده أجهزة الإعلام السوفياتية من أن القادة الشيوعيين في موسكو جادون في ارساء ديمقراطية حقيقية نابعة من احترام الكرامة الإنسانية ؟ وهل أن ما يجري في امبراطورية السوفيات الداخلية يتفق حقاً مع ما ترده أبواق الإعلاميين ؟ وهل أن في الاتحاد السوفياتي معارضة جدية لزعيم البلاد ميخائيل غورباتشيف ؟ إلى تساؤلات أخرى يجب أن يجاب عنها .

****

ذكرنا في مقالة سابقة أن فريقاً من رجال السياسة الغربيين يعتقد أن كل ما يجري في الإتحاد السوفياتي شيء مفتعل . وأن دعوى الإيمان بالديمقراطية مسرحية لا تمثل الواقع الحقيقي . وأفراد هذا الفريق متشائم جدا في المستقبل لعدد من الأسباب في مقدمتها أن كل ما حدث محاولة لإنقاذ الاقتصاد السوفياتي الذي يوشك على الانهيار وأن القيادات فيه لا تزال في أعماقها حريصة على الالتزام بالشيوعية التقليدية وأن أساليب ستالين لا تزال مستخدمة حتى الآن داخل البلاد . ومن أشهر أفراد هذا الفريق رجال من أمثال فاليري جيسكار ديستان رئيس جمهورية فرنسا الأسبق ثم كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق ثم وزير الدفاع الأميركي الحالي وجملة من الصحفيين العالميين . وأخيراً يأتي المنشق السوفياتي فلاديمير بوكوفسكي الذي أصدر كتابه " من الأوتوبيا إلى الكارثة " وفيما يلي خلاصة لإجابات المتشائمين عن تلك التساؤلات .

****

الواقع أن خلافاً للاعتقادات العامة لا أحد يشكل تهديداً لمكانة غورباتشيف داخل الكرملين . فهو منذ وصوله إلى السلطة في مارس من عام 1985 م ، استطاع أن يقيد ثمانية أعضاء من أربعة عشر عضواً في المكتب السياسي ، ثم أربعة من ستة مرشحين ، وتسعة من اثني عشر من سكرتيريه اللجنة المركزية وعلى الأقل نصف أعضاء هذه اللجنة ، هذا وقد أعلن غورباتشيف حديثاً في مقابلة مع رجال الصحافة أنه أحدث تغييرات بنسبة 66 في المائة من المسؤولين في الوزارات ، و 61 في المائة من الرؤساء الإقليميين في الحزب ومن رؤساء السوفيات المحليين ، و 63 في المائة من سكرتيرية الكانتونات في الحزب . وبعد هبوط طيار شاب ألماني بطائرته

في الساحة الحمراء ، عزل أكثر الكبار من المسؤولين وباختصار يجب أن يكون غورباتشيف متمتعاً بتأييد الأكثرية الساحقة في كل المواقع صانعة القرار .

وفوق هذا كله فإن مؤتمر الحزب السابع والعشرين ، وهو السلطة العليا في النظام السياسي السوفياتي ، قد أقر بصورة رسمية إصلاحات غورباتشيف . وبعد ذلك وفي اللقاء الحزبي التاسع عشر تكررت هذه الظاهرة . أما الصحافة فقد أبرزت هذا اللقاء على الصورة التي كشفت فعلاً عن قوة غورباتشيف ، ظهر فيه التصادم النهائي العام بين الإصلاحيين والمحافظين ، فيه كان يخاطر غورباتشيف لاحتمال سقوطه . لكن الذي حدث أنه سيطر تماماً على كل المناقشات وحصل عملياً على كل ما كان يطالب به . وإذا كانت هناك أصوات شاذة فهي الأصوات التي تطالب بالمزيد من الغلاسنوسرت والبيريسترويكا ، وليس العكس . فأين إذاً يكمن المحافظون السريون الذين يهددونه فيما يدعيه بعضهم بنفيه إلى سيبيريا ؟

****

ولنقرر فرضاً أنه توجد قوى داخلية كبيرة يحتمل أن تتصرف مع غورباتشيف وأنصاره، من مثل خصوم خروتشيف الذين فعلوا ما فعلوه منذ ربع قرن . الواقع بعد كل شيء أن خروتشيف قد تمت إزاحته من قبل أولئك الذين يمنعهم هو شخصياً . وبعد كل شيء ربما كانت للأعضاء ميول إلى أن يصبحوا محافظين بعد وصولهم إلى قمة السلطة وربما لا يوجد عدد كاف من الإصلاحيين الحقيقيين في الحزب كله لملء الآلاف من المراكز الرئيسة . لكن الثابت أنه إذا كانت اجراءات التطهير الشامل التي قام بها غورباتشيف لم تكف لتزويد البلاد بالعدد المطلوب ، فنحن لا نرى كيف وأين عساه يبحث عن الأكثرية الإصلاحية المقنعة ! ..

ومهما يكن الأمر ، إذا كان المحافظون بمثل هذه القوة فلماذا لا يكنسهم بصورة صريحة وعلى المكشوف ؟ لماذا يعرض نفسه لهذا الضجيج النابع من الغلاسنوست والبيريسترويكا ، والإقالات العشوائية لزملائهم والحملات التي يشنونها ضد امتيازاتهم ؟

هناك سببان فقط يمكن أن تفسر بهما هذه السلبية .. السبب الأول ، كما تقرر النخبة القائدة دون إيهام أو غموض ، هو الانهيار المستمر للاقتصاد السوفياتي الذي وضع البلاد عند حافة الهاوية . وكما قال غورباتشيف في " خطاب التاج " أمام اللجنة المركزية بكامل أعضائها " أن مواقع الاشتراكية في العالم المعاصر ستتعرض لضعف شديد إذا لم يبادر الحزب إلى القيام بتغييرات جذرية" . وهذا يعني أن الإتحاد السوفياتي لن يستطيع الحفاظ على موقعه كقوة عظمى وعلى امبراطوريته كما لا يستطيع الاستمرار في منافسته العسكرية

للغرب . وبتعبير آخر ، فإن وضع البلاد هو من السوء بحيث أن على أسوأ المحافظين أن يغامروا في تبني البيريسترويكا الغورباتشيفية لإنقاذ نظامهم السياسي ، ومكانهم في السلطة ، وبعض امتيازاتهم على الأقل .

أما السبب الثاني ، فهو أن نجاح الغلاسنوست في الغرب ، والرغبة الشديدة في مساندة غورباتشيف قد تمت ترجمتها إلى ملايين من الدولارات وإلى حالة انفراج جديدة . إن هذه الرساميل الكبيرة بالإضافة إلى حالة الانفراج ، قد قللت من الضغوط التي كانت تهدد بإسقاط النظام السوفياتي .

هاتان النتيجتان يجب أن تكونا كامنين لإحداث تعويض واسع وكبير عن التضحيات الصغيرة التي يجب على المحافظين أن يقوموا بها .

وهنا لا يسعنا أن نتجاهل منطق الأشياء : فإما أن هؤلاء المحافظين السريين هم أقلية عاجزة عن السيطرة على الإصلاحيين (وفي هذه الحالة يسهل تجاهلهم) أو أنهم يشكلون أكثرية وافقت على مبدأ البيريسترويكا والغلاسنوست باعتبارهما الأقل شراً . وفي كل الأحوال ، فإنهم لن يشكلوا أي تهديج للإصلاحيين ما دام أن الاتحاد السوفياتي الى مخرج ، وما دام أن الإصلاحات والاضطرابات التي تترتب عليها لم تنتزع من المحافظين ما يتمتعون به من النفوذ والسلطان .

وإذاً فلا يهم من بعد أن يكون غورباتشيف من الإصلاحيين أو من المحافظين ، إذا كان غير قادر على الذهاب إلى أبعد مما يسمح له به المحافظون ! فلماذا يجب أن يعمل الغربيون عقولهم ويحكوا رؤوسهم للتمييز بين المحافظين والإصلاحيين ؟ فهم في التحليل الأخير ، لا يتعاملون إلا مع القيود والتضييقات التي يفرضها الأولون على الثانين ؟

عندما يقدم العالم كله على مساعدة غورباتشيف بحماسة شديدة بواسطة مليارات الدولارات ، واتفاقات حول خطط التسليح ، فمن هو المساعد في الحقيقة والواقع ؟ إن المساعدة من الخارج تخفف من الحاجة إلى الإصلاحات الداخلية . والثابت أن المحافظين يفضلون هذه المساعدة، بالقدر الذي يقل ضغطها على مكانهم من السلطة . وكلما زاد الوضع السوفياتي صعوبة ، كان على المحافظين أن يضحوا بالمزيد من الامتيازات .

إن حرارة الغرب وحماسته من أجل غورباتشيف أمران يدعوان إلى السخرية . فالغرب ينسب إلى غورباتشيف كل فضل ذي إيجابية ظاهرة فيما يجري من التطوير ويلومون المحافظين وينسبون اليهم كل واقعة سلبية . والمثل على ذلك أن الغرب ينسب إلى غورباتشيف الفضل في تسريع ثلاثمائة سجين سياسي تقريباً ، مع العلم أن مئات كثيرة من الناس لا يزالون في السجون . هذا التناقض الصريح لا يخدش سمعته أبدا ، ذلك أن الغرب يبرره على

أنه حدث بسبب الرغبة في تحديد سلطته . فإذا كان هذا هو الحال فإن وضعه يمكن أن يكون أضعف من وضع خروتشيف ، الذي استطاع أن يحرر الملايين عام 1956 م رغم وجود معارضة حقيقية .. من قبل الحرس القديم .

مرة أخرى لا سبيل إلى تجنب أحد خيارين : إما أن غورباتشيف ضعيف جداً بحيث لا يستطيع أن يحرر مجموعة قليلة من السجناء وإما أنه لا يريد تحرير السجناء وأنه ليس زعيما إصلاحياً . ففي هذه الحالة أو تلك ، ندرك أن الضغط وحده هو الذي يسهل الخطوات الإصلاحية وبالتالي تحرير المساجين .

****

لماذا يظن الغرب أن غورباتشيف هو إصلاحي ليبرالي ؟ لا شيء في مسؤولياته السابقة يميزه من الحرس القديم الذي دفعه إلى الأمام ، وشكله ثم رقاه ، إنهم رجال اندروبوف وسوسلوف وكولاكوف الذين اختاروه ووقفوا إلى جانبه ، وفيما بعد ساندوه كل من أوستينوف وغروميكو . ليس واحد من هؤلاء يمكن أن يعتبر ليبرالياً. وزيادة على ذلك ، فإن رجلاً يلتحق بالحزب عام 1952م (خلال معركة ستالين الأخيرة ضد اليهود والمثقفين)، ثم يصبح عام 1966 م بعد إزاحة خروتشيف رئيساً اقليمياً في الحزب ، وفي عام 1971 م عضواً في اللجنة المركزية ثم عضواً في المكتب السياسي عام 1980 م لا يمكن أن يكون إصلاحياً متحمساً . بل أن من الطبيعي أن يعتبر مسؤولاً بين المسؤولين عن مرحلة الكساد البريجنيقي ، الذي ينتقده اليوم بشدة . وإذاً فإن من المضحك أن يصنف اليوم وجهاً جديداً من وجوه الكرملين .

يضاف إلى ما سبق أن الغرب ينسب إليه كل السياسات الإصلاحية ومبدأي البيريسترويكا والغلاسنوست . حتى أن السيدة تاتشر رئيسة الحكومة البريطانية تعلن مؤكدة " حبها له " وتصفه بالشجاعة وتقول أن في الوسع التعامل معه . والواقع أن أحداً لم يكن يتوقع ظهور مثل هذه السذاجة في رأس سياسي غربي . وأن أحداً لا يصف بالشجاعة حتى في الغرب ، رجلا خلف وراءه سفينة غارقة .

****

إن معنى مضاداً بمثل هذا الوضوح يصدر عن سوء فهم لماهية نظام دكتاتوري . فنحن أحببنا غورباتشيف أم كرهناه ، فإننا لا نتعامل مع فرد بل مع نظام سياسي . إن السكرتير العام من الحزب الشيوعي في الإتحاد السوفياتي ليس كائناً بشرياً ، بل هو وظيفة ومسؤولية . وميوله الشخصية لا قيمة لها أبدا ، ذلك لأنه ليس

قيصراً، والنظام السوفياتي ليس اوتوقراطية . إن ظهور زعيم جديد لا يعني سياسة جديدة بصورة أوتوماتيكية . بل هو العكس : فقرار تغيير السياسة يقود إلى تغيير القيادة .

هذا العامل من التجديد صحيح في حالة غورباتشيف. فسياسته المتعرجة الخاصة بالغلاسنوست والبيريسترويكا قد عينت أبعادها قبل أن يصبح سكرتيراً عاماً . وفي ضوء بعض المعلومات ، إن المبادىء الرئيسة قد تم إعدادها في الفترة الأخيرة من عهد بريجنيف ثم عهد اندروبوف القصير .

****

إن القضية ليست قضية أن الحزب يريد أن يحسن ظروف العيش عند الجماهير . بل العامل الأول هو انهيار الاقتصاد الكارثي ، الذي كان يهدد الاتحاد السوفياتي كقوة عظمى . والغرب لم يخطىء حين أدرك بأن أصل الأزمة القائمة هو الاقتصاد . لكنه أخطأ جداً حين لم ير بأن أزمة في نظام سياسي يمكن إلا تكون غير ظاهرة ثانوية . إن تحسين الأوضاع لفترة قصيرة عند الجماهير لا يعني شيئاً في بلاد لا يختار الشعب فيها حكومته ، وحيث تكون أجهزة القمع من القوة بحيث تستطيع أن تسحق أي اضطراب وحيث تعتبر كل حياة مكرسة لخدمة الغرض النهائي الذي هو انتصار الاشتراكية على الرأسمالية . إن البطالة الشاملة للإحباط الكبير ، مثلاً ، قد زلزل جذور المجتمع الأميركي في الوقت الذي كان فيه ملايين عديدة يهلكون من الجوع في أوكرانيا السوفياتية دون أن يشعر أحد بوجود أزمة . ولكن عندما فهم لينين بأن الثورة الاشتراكية العالمية عام 1921 م ليست قريبة في المستقبل المنظور ، فقد خامره الإحساس بالأزمة . وهنا أعلن سياسته الجديدة وخطة الانتقال من الهجوم إلى الحصار " نحن في وضع رجال أمروا بالتراجع المنظم من أجل استئناف الهجوم فيما بعد ."..

****

إن شيئاً شبيهاً بذلك قد حدث في نهاية سنوات السبعينات وبداية الثمانينات . فالبرغم من تعاقب الفشل الإقتصادي ومن هبوط مستوى الانتاج ، ومن أن نمو الإنتاج الوطني الخام قد اقترب من الصفر ، والأخطر من ذلك ، أن الموارد الطبيعية قد استنزفت ، فإن هذه المعضلات لم تحدث أثرها السيء بصورة مباشرة على ظروف العيش عند الجماهير ، ذلك لأن هذه الأخيرة لم تكن مختلفة عن تلك الموجودة عام 1965 م . بل الذي تأثر حقاً هو احتمال أن يعجز الاتحاد السوفياتي عن تحقيق رسالته التاريخية . فلو مضت بعد ذلك سنوات لما كان في وسع السوفيات أن يساعدوا أنغولا وكوبا وفيتنام والحبشة .. ولتعرض مصير الاشتراكية للخطر . إن انهيار العالم الثالث ، ثم الأقمار الصناعية الأوروبية الذي يترتب على ذلك ، يثير سلسلة من ردود الفعل السلبية داخل

الاتحاد السوفياتي . وإذاً فإن على السوفيات أن يتراجعوا لإستئناف الهجوم فيما بعد .أما ما لم يقدره غورباتشيف ولم يتوقعه فهو أن البيريسترويكا والغلاسنوست أشبه ما تكونان بعلبة باندور في الأسطورة اليونانية .. فإن عدد التظاهرات ، والاجتماعات غير الشرعية ، والاحتجاجات أو الاضطرابات قد زاد يوماً بعد يوم . وقد أحصت صحيفة تايمز اللندنية أحصت مائتين من هذه التظاهرات وغيرها تقريباً خلال ثلاثة أشهر (شباط ، آذار ، نيسان من عام 1988) . وبعيداً عن التوافق مع روزنامة غورباتشيف ، فإن هذه الاحتجاجات والمطالب وضعت المعضلات القومية في مقدمة الأحداث ، وكذلك المسائل الأيديولوجية ، والحريات الدينية والسياسية .

****

وبالرغم من أن الاضطرابات الدرامية قد أثرت حديثاً في أرمينيا وأزربيجان ، فإن عشرات غيرها من الاحتجاجات والتظاهرات المنظمة لخلق حيوية سياسية جديدة قد تعاقبت في الوقت نفسه . بعضها كان عنيفاً، وبعضها الأخير كان دون ذلك . أما الأجهزة الإعلامية الرسمية فلم تتحدث إلا عن بعضها ، رغم حرية التحقيقات الصحفية التي منحت بسبب مبدأ الغلاسنوست .

هذه الأحداث لها أبعاد ونوعيات غير عادية . إنها تثبت أنه لا يوجد عملياً أي اقليم كثيف السكان في الاتحاد السوفياتي لم يتأثر بالمشاهد غير العادية سابقاً لمجموعات صغيرة من الفتيان والفتيات يلوحون بيافطات ويرددون شعارات كان الناس يرددونها همساً وفي الخفاء.

ففي اقليم تيمان الضائع في سيبيريا ، بادر شبان من سكان قرية كومسوموسكي إلى رفع يافطات كتب عليها : " نحن نكافح من أجل حريات الإنسان ، من أجل الديمقراطية ، نحن لسنا عبيداً للحزب الشيوعي من الاتحاد السوفياتي " .

إن هذا المشهد يعكس بحرارة وقوة تردد السلطات المحلية التي تجابه خيارات جديدة . وفي بعض المناسبات كانت منظمة " ك . ج . ب المخابرات " ورجال الميليشيا قد فرقوا المتظاهرين بالقسوة والبربرية المتعارف عليهما بينما في مناطق أخرى لم يحدث أي اعتراض.

****

ما الذي نخرج به ونحققه من الرأي بعد الذي عرضنا له من الأحداث ؟ نعتقد أن الجواب عن ذلك مشروط بإيراد الجوانب الأخرى من الوقائع والمواقف في الإتحاد السوفياتي . ولذلك نعود إلى هذا الموضوع في حلقة تالية .